الطريقة الساعدية
جذورها ـ منهجها ـ أهدافها

الدكتور محمد مصطفى صوفية

الجامعة الأسمرية

الطريقة الساعدية أو السعدية منسوبة إلى الشيخ ساعد أو سعد التباني بناءً على اختلاف في اسم الشيخ التونسي الزغواني ـ رحمه الله ـ هي إحدى الطرق الصوفية التي اشتهرت في ليبيا شرقها وغربها على السواء منذ مطلع القرن العشرين ، وازدهرت حتى منتصفه ، وفي بلاد العالم الإسلامي المترامي الأطراف ، فانتشرت هذه الطريقة في شرقه وغربه كذلك(1) .

يؤكد انتشار هذه الطريقة ـ على هذا المستوى ـ ما سمعته في الملتقى العالمي للتصوف الإسلامي المنعقد على أرض الجماهيرية العظمى في مدينة طرابلس في التاريخ من 20 ـ 22 ربيع الآخر ، 16 ـ 18 من شهر الفاتح 1424 ميلادية الموافق 1995 ف الذي اشترك فيه ممثلو أكثر من ثلاث وخمسين دولة إسلامية ، وأكثر من مائة منظمة إسلامية ، والذي دعيت إليه ـ سمعت مفتي البانيا في هذا الملتقى .

(1) اعتمد هذا البحث المقابلة الشخصية والرواية الشفهية إلى جانب المصادر المكتوبة المخطوطة والمطبوعة . وما يتعلق بالطريقة الساعدية نادر .

يشكو الظلم الواقع على المسلمين في ألبانيا ، ويصور حالة شبابها من الفراغ الديني والروحي ، ويحكي عن الشباب فيقول : أتمنى أن أكون شاذلياً ، أتمنى أن أكون ساعدياً . . . الخ(1) .

عندما سمعت ذلك طلبت الكلمة ، فتحدثت عن هذه الطريقة الساعدية ، ورجالها ، ومنزلتها ، وأهدافها .

(1) أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي 1424 ميلادية الموافق سبتمبر 1995 م منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ط . أولى 1425 ميلادية ،

هذه الطريقة الصوفية (الساعدية) انبثقت عن الطريقة المدنية التي أسسها الشيخ محمد حسن حمزة أحمد عبد الحميد محمد عبد الباقي أحمد ظافر المدني[1] .

خرج الشيخ محمد حسن حمزة المدني من المدينة المنورة نحو عام 1220 هـ وظهرت طريقته نحو عام 1240 هـ بعد أن التقى العالم الأستاذ الكامل الشيخ محمد العربي الدرقاوي بزاويته في بني زروال على مسافة يومين من مدينة فاس بالمغرب سنة 1224 هـ في شهر صفر يوم الأحد 23 منه ، وأخذ عنه ، وصحبه نحو تسع سنوات ، رجع بعدها إلى المدينة المنورة بأمر من شيخه قائلاً له « رح إلى بلادك يامدني ما بقيت لك حاجة عندي »[2] فأقام بها داعياً ثلاث سنوات ، وأخذ عنه الفضلاء ؛ منهم الشيخ صالح بالي ، والشيخ أحمد الرفاعي ، والشيخ السمنهودي ، ثم رجع الشيخ محمد ظافر المدني إلى شيخه الدرقاوي ، ففرح به ، واستقبله استقبالاً حافلاً ، وجلس في حضرته نحو عام حتى وفاة الشيخ الدرقاوي سنة 1234 هـ فحضر مشهده ، وجلس أمام خليفته من بعده .

ثم رحل إلى تونس فأسس بها عدة زوايا بلغت 31 إحدى وثلاثين زاوية ، ثم إلى طرابلس وبرقة وأسس بهما 25 خمساً وعشرين زاوية ، ولما قدم طرابلس الغرب تعلق أفراد من أهلها به ، ثم كثر السالكون على يديه ، واشتهرت الطريقة به ، فانتسبت إليه ، ومن أجل ذلك سميت المدنية ، وهي فرع من الشاذلية[3] .

ثم عاد إلى مراكش وأسس بها ، وبفاس ، وبمكناس ، والرباط عشرين زاوية .

وفي رحلته في بلاد العالم الإسلامي أسس 10 عشر زوايا في كل من النيجر ، وتشاد ، والسودان ، وثلاث زوايا بالصومال ، و 14 أربع عشرة زاوية بأندونيسيا ، وباكستان و 5 خمس زوايا بالحجاز ، وزاوية بتركيا .

ثم عاد إلى الصحراء الغربية بمصر وأسس زاوية الطرفانية بسيدي براني ، وزاوية سيوة ، وانتشرت الزوايا في مصر حتى بلغت 10 عشر زوايا بالوجه البحري ، و 20 عشرين زاوية بالوجه القبلي .

(1) الأنوار القدسية في تنزيه طرق القوم العلية جمع الأستاذ محمد محمد حسن ظافر المدني 32 وما بعدها ط دار الأندلس للتأليف والترجمة والنشر (د . ت) .
(2) الأنوار القدسية ص 32 مصدر سابق .
(3) نفسه ص 92 .

ولكل زاوية مجلس يدار برياسة شيخ الزاوية الذي يعينه شيخ الطريقة ، وقد قامت هذه الزوايا بنشر العلم ، والدين الإسلامي ، وإصلاح ذات البين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإطعام الطعام ، وتحفيظ القرآن الكريم .

وبالتعرف على هذه الطريقة من خلال ما قامت به من أعمال جليلة انطلاقاً من زواياها المنتشرة في العالم الإسلامي ندرك أنها تطبيق عملي لتحقيق رسالة الإسلام في نشر عقيدة التوحيد ، والتمسك بكتاب الله القرآن الكريم تحفيظاً ، وتعليماً ، وتطبيقاً لأوامره ، ونواهيه في العبادة ، والرعاية الدينية والاجتماعية الشاملة بمفهومها الإسلامي الصحيح .

وهي لم تُعن بالمواطن فقط ، بل عُنيت بالوطن وحمايته ، ورد كيد الأعداء عنه فقد قام الشيخ عمر محمد محمد حسن ظافر المدني بالجهاد ضد الانجليز مع أنورباشا ، ونوري باشا ، ومحمد صالح حرب ، والسيد أحمد الشريف سنة 1914ف[1] .

وكان مؤسس الطريقة ـ وأتباعه كذلك من مشايخ الطريقة ـ يأمر أصحابه بالاستقامة ، وحسن المعاملة ، ويأمرهم بحمل الأذى ، وكفه ، والخلق الكريم ، وكان يأمرهم بالصلاة جماعة ، وللنساء محل معد للصلاة جماعة في الزاوية .

والعناية بالنساء إلى جانب الرجال ـ شقي المجتمع ـ مستمدة من التربية الإسلامية على يد صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام الذي كان يخصص من وقته ليسمع من النساء ، وليعلمهن مبادئ الشريعة ، ويربيهن عليها ، فحضور النساء إلى الصلاة جماعة في الزاوية يتبعه سماع الموعظة ، واتباع السلوك العملي في التطبيق للعبادة ، إضافة إلى ما لهذا النوع من التجمعات من فوائد تربوية ، دنيا وأخرى .

ومريدو هذه الطريقة فريقان :

فريق متجرد للعبادة فقط ، معرض عن شواغل الدنيا ، عاكف على الدروس والأذكار وهؤلاء من يُسمَّون فقراء التجريد ؛ وهو مصطلح معروف عندهم يطلق على هذا النوع من أتباع هذه الطريقة .

وفريق منتسب (أي عامل) وهؤلاء تشملهم الطريقة ومبادئها ، ولايمنعون من

(1) أعلام ليبيا الطاهر أحمد الزاوي ص 51 ، 52 ، مؤسسه الفرجاني طرابلس ليبيا ط 2 ، 1390 هـ 1971 .

العمل مما أبيح لهم من البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، والكد على العيال ، وإنما التقوى شرط لازم على كل حال[1] .

ومن أشهر رجال هذه الطريقة :

الشيخ محمد حسن ظافر المدني مؤسس الطريقة .

الشيخ حمزة ظافر المدني شيخ الطريقة المدنية لمحافظة مطروح .

الشيخ بشير ظافر المدني ، والأستاذ عصمت ظافر المدني ، وهما مقيمان بليبيا .

ولمشايخ الطريقة قدر واحترام زائد لدى قبائل أولاد علي ؛ لما يقومون به من خدمات جليلة ، وجهد مشكور في حل النزاعات ، والمشاكل ، قبل تفاقمها لما لهم من كلمة مسموعة ، واحترام وتقدير فائقين .

وقد أخذ صاحب هذه الطريقة عن الطرق :

الناصرية ، والتيجانية ، والعيسوية ، وهي فروع من الشاذلية .

والشاذلية : [2]

مؤسسها أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار . . . الشاذلي ، ينتهي نسبه إلى محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . . . عرف بالشاذلي ، ومنشؤه بالمغرب الأقصى ، ومبدأ ظهوره بشاذلة ؛ بلدة بالقرب من تونس ، وإليها يُنسب ، ولادته في نحو ثلاث وتسعين وخمسمائة هجرية ، بقرية من قرى غمارة ، من أفريقية قرب سبتة ، وهي من المغرب الأقصى ، ونشأ بها ، واشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها .

ساح في أرض الله ، وله كرامات في تونس ، ثم رحل عنها حتى وصل العراق ، ومنها عاد إلى المغرب كما نصحه الشيخ أبو الفتح الواسطي حيث التقى فيها عبد السلام بن مشيش ، وتتلمذ عليه ، وهو الذي أمره بالرحيل إلى أفريقية قائلاً له[3] : « ارحل إلى أفريقية ، واسكن بها بلداً تسمى شاذلة فإن الله يسميك الشاذلي ، وبعد ذلك تنتقل إلى تونس . . . وتنتقل إلى بلاد الشرق ، وترث القطبانية » .

(1) الأنوار القدسية ص 96 مصدر سابق .

(2) نفسه ص 21 وما بعدها .

(3) الأنوار القدسية ص 22 مصدر سابق .

وشادلة : بكسر الدال المهملة والمعجمة ، على التبدل وليس الجمع .

والطريقة الشاذلية مأخوذة عن المشيشية ـ حين تتلمذ الشاذلي لابن مشيش ـ وهي مأخوذة عن طريقة الشيخ عبد الرحمن المدني ، فكأن المدينة ـ إذن ـ هي الأصل الأول والفرع المتأخر مروراً بالطريقة المشيشية فالشاذلية . . . الخ .

رحل الشاذلي من تونس إلى بلاد المشرق فوصل الاسكندرية ، ومنها إلى القاهرة ، ثم حج بيت الله الحرام ، ورجع بعد الحج إلى تونس ، ثم عاد إلى مصر ، وكان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل عصره ، كالشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وابن الصلاح ، وابن الحاجب ، وابن عصفور ، وابن سراقة ، والعلامة يس ، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة .

وتلمذة هذا الجمع الغفير من العلماء المشاهير على الشيخ الشاذلي يكسب الشيخ وطريقته وعلمه أهمية بالغة ، وأثراً عظيماً في منهج التربية لهذه الطريقة عقيدة وعلماً وسلوكاً سنياً صافياً في منهج التصوف .

منهج الشاذلية :

ومبنى الطريقة الشاذلية أنها تقوم على تقوى الله ، واتباع ما أمر به تعالى على لسان نبيه الكريم في كلامه القديم ، وفي سنة نبيه العطرة ، قال تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: 7] ، وهي تشتمل على مكارم جليلة ، وأوصاف حسنة جميلة ؛ كالاستقامة الكاملة ، والصدق مع الله ، وحسن المعاملة ، وكذا العبودية التامة ، . . . وذكر الله . . . الخ .

وكان الشاذلي لا يحب المريد الذي لا سبب له (أي لا عمل له) . . . وكان لايأمر أحداً بترك حرفته أو تجارته ، بل يعرفه الطريق وهو باق على حالته .

ومن أقواله رحمه الله(1) : « التصوف تدريب النفس على العبودية ، وردها لأحكام الربوبية » .

ومدرسة الشاذلي مدرسة صوفية سنية بكل ما في السنة من معنى ، ويحدد لنا الشاذلي طابع مدرسته في قوله(2) : « كل علم يسبق إليك فيه الخواطر ، وتميل إليه

(1) عن الأنوار القدسية ص 96 مصدر سابق .

(2) عن الفلسفة الصوفية في الإسلام ، مصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحياة للدكتور عبد القادر محمود ص

النفس ، وتلذ به الطبيعةفارم به وإن كان حقاً ، وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله ، واقتد به وبالخلفاء والصحابة والتابعين من بعده ، وبالأئمة الهداة المبرئين عن الهوى ، وبمتابعته تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوي الكاذبة المضلة عن الهوى» .

صوفيته إذن ـ مستندة إلى شرع الله ، ملتزمة بأوامره ونواهيه ، غير عابئة بمالا يستند إلى هذا الشرع الذي أنزله الله على رسوله كاملاً محققاً لحكمة الله فيه .

فما يهدي إليه الخاطر ، أو تدركه النفس ، أو تلذ به طبيعة الإنسان مما يشطح به بعض الصوفيين من الكشف والفيض وغير ذلك غير معول عليه ؛ إذ لو كان ذلك كافياً لما أنزل الله شرعه على رسوله .

أما عن النزعة الأخلاقية الهادفة من السلوك الصوفي ـ فيقول الشاذلي[1] : «وليس لك طريق إلا الطريق والإصلاح ، والاعتصام بالله ، والإخلاص في دين الله تعالى» .

وباعتماد هذه المدرسة الصوفية الشاذلية السنية على هذه الأسس الشرعية ـ أبعدت كثيراً من الشطحات الصوفية المتطرفة مثل : الكشف ، والفيض ، والوصول ، والفناء ، والبسط ، والقبض ، والحال ، والوجد ، والتجلي ، والعشق ، والشريعة ، والحقيقة[2] .

يقول الشاذلي[3] : «إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف ، وقل لنفسك إن الله قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في الكشف» .

كان هذا التأصيل والتجذير والتوثيق للطريقة السعدية المنبثقة عن الطريقة المدنية ، المتفرعة عن الطريقة الشاذلية ، المتفرعة عن الطريقة المشيشية المتفرعة عن الطريقة المدنية الأولى التي أسسها عبد الرحمن المدني كما سبق ـ البيان الكاشف لما لهذه الطريقة من أهمية بالغة ، وأثر عظيم في التربية الروحية والسلوكية التي كانت تحرص عليها هذه الطرق الأصول ، والفروع ، من خلال مبادئها ، ومنهجها ، وأهدافها .

---

286 ط دار الفكر العربي (د . ت) .

(1) الفلسفة الصوفية في الإسلام ص 287 مصدر سابق .

(2) انظر نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس للحافظ الإمام جلال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي المتوفى 597 هـ . ص 160 ، 165 إدارة الطباعة المنيرية (د . ت) .

(3) عن الفلسفة الصوفية في الإسلام ص 287 . مصدر سابق .

فانتهجت الطريقة الساعدية ما انتهجته أصولها من العقيدة الصحيحة الراسخة ، المقرونة بالعمل الصالح طبقاً لشريعة الله التي جاء بها القرآن الكريم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: 9] الآية . و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا . ﴾ الآيات [الكهف: 107] . و ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ . . ﴾ الآية [النور: 53] إلى غير ذلك من النصوص القرآنية .

ومن خصائص الطريقة السعدية التجرد من الماديات ، وعبادة الله بإخلاص ، والمداومة عليها ، وكثرة الذكر ، والعمل ، والاعتماد على الذات ، والمقاومة المسلحة لأعداء البلاد بالجهاد في سبيل الله ، وهذه المبادئ والخصائص امتداد للطريقة الشاذلية الأم .

كانت هذه الطريقة الساعدية في زاوية زغوان بتونس ، وكانت هذه الزاوية ملتقى رجال الطريقة الساعدية ، وفقراء التجريد ، حيث يوجد شيخ الطريقة سيدي سعد التباني الذي سميت الطريقة باسمه ، ونسبت إليه ، وكان مريدوها في تونس متصوفة ، محاربين لفرنسا أيام احتلالها لتونس فطردتهم فرنسا من تونس ، ورحلوا منها مهاجرين إلى مصراته بليبيا ، ورحل شيخ الطريقة وهو الشيخ محمد الطاهر التباني لمباشرة قيادتها من مصراته .

والشيخ محمد الطاهر التباني من العلماء الفضلاء تتلمذ له الشيخ رحومة الصاري رحمه الله ، فأخذ عنه تفسير القرآن الكريم في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ حين لحق بشيخه حاجاً بيت الله الحرام ، متشوقاً إليه في تربيته الروحية والعلمية ، فالتقاه أولاً في ليبيا ، ثم في الأراضي المقدسة ، قال الشيخ رحومة[1] : « وفي سنة سبع ـ أي بعد الثلاثمائة والألف للهجرة ـ توفي الأستاذ سعد التباني ، وصار خليفة له ابنه العالم العامل ، الأستاذ الكامل ، الجامع بين الشريعة والحقيقة الشيخ سيدي محمد الطاهر التباني ، فقدم إلى زليتن عن طريق طرابلس الغرب ، واجتمعت عليه العلماء من كل بلد ، وأخذوا عنه الطريق ، وسبى القلوب بحكمه وتفسيره للقرآن ، ولحديث سيد ولد عدنان ﷺ ، فما تسمع إلا الأذكار في البدو

(1) رحومة الصاري ـ حياته و آثاره . جمع وتحقيق ودراسة (رسالة ماجستير مخطوطة) . إعداد محمد علي سليم البحباح إشراف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صوفية . انظر الملحق أ بخط الشيخ رحومة .

والحضر ، فجددت عليه عهد الطريق» .

ومشايخ هذه الطريقة كما ذكر لي غير واحد من أتباعها الذين التقيتهم هم :

سيدي سعد التباني ، تونس .

سيدي محمد الطاهر التباني ، تونس .

سيدي المسعودي التباني ، تونس

سيدي موسى المصري .

سيدي الشيباني علي الشيباني العبدلي ، ترهونة ، ليبيا .

سيدي محمد بن عبد الله ، زليتن ، ليبيا .

سيدي عمران بن سلمى ، زليتن ، ليبيا .

وهو من قال عنه الشيخ رحومة الصاري : [1] «فلقنني ورد الطريقة الفاضل الكامل ، والعارف الواصل ، ذو الكرامات العديدة ، والإشارات المفيدة سيدي الشيخ الحاج عمران بن سلمى نيابة عن الأستاذ العارف الكامل سيدي سعد التباني دفين زغوان ، فصحبته رحمه الله تعالى ، ولزمت مجالس الذكر معه ، وانتفعت بوعظه . . . .» .

وقد ذكر لي هذه السلسلة ـ سماعاً منه ـ الحاج المهدي محمد عبد القادر الفقيه من أولاد صالح ، وعمره ثمانون سنة ، وهو من منتسبي الطريقة السعدية ، المحافظين على تقاليدها وأذكارها ، وهو من منطقة الساعدية غرب مدينة طرابلس ، من قرية أولاد صالح .

كان هذا اللقاء في يوم 22 ـ 4 ـ 1992 ف معه ، ومع الحاج المبروك القريو ، والحاج الصادق بن عمار حين كنت أبحث عن شعر الشيخ الشارف المحفوظ في صدور فقراء الساعدية ، وكان الشيخ أحمد الشارف من أعلام هذه الطريقة .

ولقد سمعت منهم ما كان ينشده لهم الشيخ الشارف في مدح الطريقة الساعدية ، ومشايخها ، ومدح الصوفيه بعامة ـ مما نقلوه عنه سماعاً فعلق في صدورهم ، وأعجبت

(1) رحومة الصاري ـ حياته وآثاره ، مصدر سابق ـ الملحق _ أ _ ص 11 القسم الدراسي .

بمنهج أدائهم المحكم لإنشاد الشعر ـ لغة وأداء ـ الذي رباهم عليه المرحوم الشاعر الشيخ أحمد الشارف كما أفادوني هم بذلك .

ولقد كان الشيخ الشارف يمقت اللحن والخطأ في النطق ، ويكره الإنشاد البارد ، وكان يدفع بشعره إلى الأستاذ أحمد الحصائري لينشده في المحافل ؛ لما له من جهارة صوت ، وحسن أداء ، وفصاحة ، أخبرني بذلك الأستاذ منصور الشارف ابن عم الشيخ أحمد الشارف ، وهو من كان مصاحباً له في بيته يساعده على القراءة والكتابة حين كف بصر الشيخ الشارف رحمه الله .

وللشيخ الشارف في مدح الطريقة السعدية ورجالها شعر كثير من ذلك ما رواه لي الحاج المهدي الفقيه ، والحاج المبروك القريو ، وكان هذا راوية ثقة عند الساعدية ، فصيحاً في إنشاد المدائح الصوفية كما عودهم بذلك الشيخ الشارف رحمه الله ، قالا سماعاً عن الشيخ الشارف في مدح مشايخ الطريقة السعدية(1) :

أهلاً وسهلاً بالأهلة إذ بدت سهلت عليَّ مسالك الخيرات
وتعطرت بقدومهم آفاقنا كتعطر الأزهار بالنسمات
وكذا الكواكب في السماء طلوعها مستحسن في حندس الظلمات
فهم الكرام ولا كرام سواهمو هم سادتي و أئمتي وثقاتي
يتعرضون لنفحة المولى ومن شأن الكرام تعرض النفحات
لا تنكروا هيمان قلبي من فتى مترنما فيهم على كاسات
أسماع من يهوى الأحبة لم تزل محتاجة لمحاسن النغمات
وعيون من يشتاق نظرتهم غدت مضطرة أبداً إلى العبرات

(1) انظر : شاعر من ليبيا ، أحمد الشارف ، دراسة وديوان علي مصطفى المصراتي ص 408 ط . 3 2000 الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان مع اختلاف في ترتيب الأبيات مع هذا النص الذي سمعته رواية بتاريخ 22 ـ 4 ـ 1992 ف الذي أضافه المصراتي ، وغَيرَه من النصوص في هذه الطبعة ، ومازالت عندي نصوص للشارف لم تنشر حتى الآن .

وللشيخ الشارف في الشعر الصوفي الرمزي(1) :

سلاف الراح أسكـرت الندامى وأذهبت الصبابـة والغرامـا
هي الراح التي جلبـت شفـاء لشاربها وأذهبـت السقامـا
فمن أدى الصلاة وصام عنهـا فما عرف الصلاة ولا الصياما
ولا فهم الزكـاة ولا نواهـا ولا المسعى ولا البيت الحراما
يطوف بها على الندماء صرفاً أخو ثقـة ولا يخشـى الملاما
وصالك أيها المسعود يحلـو لكـل فتى غدا بـك مستهانـا

وكان الشيخ الشارف رحمه الله ـ مشرفاً على الزوايا المدنية ، راعياً لأوقافها .

وبتاريخ 22 / 4 / 1992 ف أثناء البحث عن شعر الشيخ الشارف ـ وجدت عند الحاج المهدي الفقيه قصيدة مخطوطة في كراسة مع أذكار وأوراد صوفية ـ منسوبة للعلامة المرحوم الشيخ زروق مليئة بالمصطلحات الصوفية الرمزية ـ وهي :

أهدي إليَّ الشـذى من عرفه خبـراً وهمت بالسـر لمـا أن إليَّ سـرى
وطبت من بين أصحابي وما علمـوا ما قد جرى من حديث العشق كيف جرى
تعجب الناس مـن سكرى ولو شربـوا من كـأس شربـى لما لاموا الذي سكرا
من خمرة العشـق معنى ليس يدركها إلا فتـى مـزق الأطمـار واشتهـرا
عنـدي كنـوز رمـوز ليس يعلمهـا من أمـة العشـق إلا مـن علـيَّ قرا
امـح الرسـوم ولا تبقـى العلـوم ولا تنظـر لإيـاك لا عينـا ولا نظـرا
واشـرب بكـأس صفـاء قد شربت به وانظـر إلى عالـم العرفان قد ظهرا
طف حول كعبة قلبي إن عزمـت على وصل الحبيـب ودع من لام أو عـذرا
ودع من سعى أو دعا أو طاف مجتهداً ومن أتى البيـت والأركـان والحجرا

(1) سماعاً من الحاج الصادق بن عمار ، والحاج المهدي الفقيه ، والحاج المبروك القريو ، والشيخ محمد سالم الكميتي ، وهذه الأبيات لم تنشر .

وغب عن الاسم تشهد عند غيبته ذاك المسمى يمل السمع والبصرا
هناك تشهد أهل العشق كلهم في حومة الحب في حكم الهوى سهرا

وبالرمز يتحدث الأدب الصوفي بذكر الحبيب ، والخمرة ، وسكرها ، وساقيها ، يرمز بذلك إلى الحب الأسمى للصوفية ، وإلى السكر الروحي الحلال بنشوة النفس طربا بالفضائل التي تُمتع بها النفس الصافية ، والحب النقي الذي تغيب فيه ذات المحب فلا يرى إلا محبوبه يذوب فيه ، ويسعد بوصله .

وهذا الرمز الصوفي ظهر كثيراً في شعر الشيخ الشارف في حديثه عن الساعدية ومشايخها .

وإذا كان تمثيل الناس في إدراك الحقائق يقوم على نقل المعقول إلى المحس لبداهة إدراكه ، ولأنه المعرفة الأولى التي ينطلق منها العقل إلى التفكير ـ فإن الصوفية عكسوا هذه الصورة ؛ فرمزوا بالحبيب المحس إلى الحبيب الأسمى ، في حب طاهر نقي عظيم ، ورمزوا بالخمرة وسكرها إلى فناء النفس في هذا الحب[1] ، هذا الحب من العبد لربه ، ومن الرب لعبده ، الناطق به القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : 31] يتربى به العبد وينعم به ، بطاعة الله تعالى بإخلاص وتجرد في اتباع ما جاء به أكرم رسول محمد ﷺ من شرع عن الله امتثله العبد تعبداً لربه ، متبعاً رسوله الكريم ، فتصفو روحه بهذا الاتباع حباً في طاعة الله الموصلة إلى حب الله ، حب العبد لربه ، وحب الرب لعبده .

هذا هو المنهج الصحيح في التصوف الإسلامي ؛ علم وعمل ، وجهاد ونضال ، وإرشاد وتوجيه ، وعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وإصلاح للمجتمع في حياته المادية والروحية ، وتقوى الله في السر والعلن ، بما يجعل الحياة منضبطة بهذا المنهج الإسلامي الصافي في العقيدة والسلوك ، في القول والعمل ، وهذا المعنى هو المحقق للولاية الحقة التي أخبر عنها القرآن الكريم حين قال : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس : 62 ـ 63] وماعدا هذا المنهج ـ مما لم يكن منضبطاً بشرع الله ـ فهو تعمية وإلغاز ، لا يهدي إلى حقيقة ، ولا يرشد إلى طريق سوي ، فألفاظه المبهمة ، وشطحاته المتطرفة تضل ولا تهدي ، وتبهم ولا تبين .

(1) انظر ص 320 وما بعدها في دراسات في : الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية للدكتور عبد القادر محمود ص 328 وما بعدها ط . دار الفكر العربي 1978 ف

فما جاء على لسان الشعراء الصوفيين الحقيقيين المتبعين لشرع الله ، من رموز فإنما يعنون به صفاء الروح الرامزة بالماديات إلى الروحيات .

وعن المفهوم الرمزي عند الصوفية يقول الدكتور حسن الفاتح قريب الله : (1) « تطور على الأيام الأسلوب التربوي للمتصوفة بشأن هداية الناس إلى الصراط المستقيم من ناحية ، والتعبير عن مدى فهمهم للدين ، وللمحبة الإلهية من ناحية أخرى . . . علماً بأنه لما كانت الألفاظ اللغوية ، والمعاني تعجز عن التعبير عما بداخلهم من أحاسيس ذوقية ـ اضطروا لاستخدام الأسلوب الرمزي ليشيروا به إلى ما أرادوا من إشراقات عرفانية » ، ويقول عن المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية : (2) عبر الصوفية عن مفهومهم للخمر الرمزي بأساليب مختلفة دارت كلها حول معنى اللذة التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ الآية [محمد : 15] .

كان هذا ـ إذن ـ طريق الصوفية في التعبير عما يعتريهم من لذة روحية ، ومتعة نفسية مما ينعمون به من ثمرة العبودية بمفهومها الصافي ، الخالص عن المكدرات والشوائب ، كانت وسيلتهم في التوضيح والتربية خمر الدنيا المحسة وما تحدثه من أثر على شاربيها فرمزوا بالخمرة ، وشربها ، وأثرها ـ إلى مايجده الصوفية من لذة ، ومتعة في طاعة الله « وكما صرف القرآن الكريم المسلمين عن الخمر وشوقهم إلى ما يماثلهااسماً لا حقيقة من الخمر الغيبي كذلك فعل المتأسون به من الصوفية إذ صرفوا المسلمين عن خمر الدنيا وشوقوهم إلى ما يماثلها اسماً لا حقيقة من الخمر المعنوي »(3) وكذلك قلت في خمر الدنيا وسكرها أرمز بها إلى نعيم الجنة مضمناً ما قلت قول الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ . . ﴾ الآية . من قصيدة : أيها الساقي(4) ، التي مطلعها :

أيها الساقي تجل واسقني نهلاً وعـلا

(1) المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية . الدكتور حسن الفاتح قريب الله . ص 59 مكتبة الدراسات العربية للكتاب . (د . ت) .

(2) المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية ص 167 مصدر سابق .

(3) المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفيه ص 22 مصدر سابق .

(4) ديوان شعر مخطوط . الدكتور محمد مصطفى صوفية .

وأدر كأسك إني عاشق والعشق أحلى

قلت :

أيها الساقي تلطف بكؤوس من لبن
وكؤوس من نمير عذب غير أسن
وكؤوس من رحيق[1] لذة للمفتتن
وكؤوس من مجاج النـ ـحل تصفو لا تُمن
عدة التقوى حواها وعد فياض المنن
فاسقنيها وأعدها لا تلمني لَن أمل

جاءت هذه الطرق الصوفية ، ومنها الساعدية ، وليدة الطريقة المدنية ـ لتنقذ ما يمكن إنقاذه من قيم المجتمع الإسلامي ـ وبخاصة الأميين فيه ـ مما وقع عليه من ظلم الدول المستعمرة للعالم الإسلامي ، وما وقع فيه المسلمون من تخلف وركود فكري نتيجة لتعاقب الدول عليه التي لم تُعن بالمسلمين قدر عنايتها بمصالحها الخاصة من نهب لثروة البلاد ، ومحافظة على حكم هذه الدول الإسلامية ـ فظهرت هذه الطرق لعلاج أوضاع المسلمين المتردية ، وتبصيرهم بمفاهيم الدين الصحيحة ، وربط من فاتهم ركب التعلم بدينهم ، عن طريق الأذكار والأوراد والأحزاب والأدعية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ، وعمل السلف الصالح من أوائل المسلمين ، وهذا لا يمنع في مثل هذه الأوضاع والظروف أن ينشأ فكر صوفي متطرف ، ويكون له أنصار يتبعونه مثل تلك الشطحات الصوفية ذات التعمية والإلغاز في فكرها وسلوكها .

ومثل ما كان للشاذلية أتباع علماء كان للساعدية أيضاً أتباع عرفوا بالعلم والتقوى والورع إلى جانب حبهم للوطن والدفاع عنه لأن ذلك من صميم التعاليم الإسلامية .

وقد سبق الحديث عن الشيخ أحمد الشارف وهو العالم الأديب الشاعر .

ومن رجال العلم والتقوى والصلاح من شهد له أهل هذه الطريقة الساعدية بالتقدم

(1) الرحيق : الخمر ، أو أطيبها ، أو أفضلها . القاموس المحيط : الرحيق .

سيدي محمد بن عبد الله المنتمي إلى عائلة بن صوفية ، وهو أسمر البشرة ، دفين الزاوية الساعدية بمصراته ، كان متجرداً لخدمة الطريقة ، وهو من حفظة كتاب الله ، وكان يقوم بإرشاد المسلمين في مواقع الجهاد ضد الغزو الإيطالي لليبيا ، متنقلاً مع المجاهدين من منطة إلى منطقة حاملاً كتبه إلى مواقع الجهاد لتعليم المجاهدين أمور دينهم ، والدفاع عن وطنهم بالجهاد في سبيل الله .

أفادني بهذه المعلومات الحاج الصادق بن عمار ، وعمره في تاريخ اللقاء 22 ـ 4 ـ 1992 ف في عقد المائة .

« ثم تجرد الشيخ محمد بن عبد الله سنة 1314 هـ حين تقدمت به السن ، ولم يعد قادراً على مرافقة المجاهدين ، وبقى على حالة التجريد إلى أن تُوفي ليلة الاثنين 21 من شهر رجب سنة 1351 هـ ودفن في بيت الصلاة في جنب المحراب على يمين المصلي ـ رحمه الله ـ بالزاوية المدنية (الساعدية) بقرية السراكسة بمصراتة »[1] .

ومن رجالها كذلك العالم الفاضل الأستاذ الشيخ رحومة محمد رحومة الصاري[2] ، وهب نفسه للعلم والجهاد في سبيل الله بالكلمة والقلم [3] ، تتلمذ للشيخ محمد الطاهر التباني تصوفاً ، وعلماً لقى شيخه التباني في رحلته إلى الحج ماراً بطرابلس ، ثم لحق به في الأراضي المقدسة وصحبه في مكة وفي المدينة المنورة ، وتلقى عنه الطريقة الشاذلية وحصة من تفسير القرآن ، ولقنه الاسم المفرد[4] ، والاسم المفرد عند الصوفية : الله ، والشاذلية أمٌّ لكثير من الطرق الصوفية كثيراً ما ينسب إليها دون فروعها ، وهذا راجع إلى شهرتها ، وأصالتها ونقاوة مبادئها .

وكان الشيخ رحومة ـ رحمه الله ـ خطيباً بالجامع الحميدي بزليتن ، وهو ما يعرف الآن بجامع أبي منجل وسط السوق ، وغلبت هذه الشهرة على نسبته إلى السلطان عبد الحميد العثماني .

حث الشيخ رحومة الناس على الجهاد في سبيل الله بخطه ، ومواعظه ، وقاوم

(1) عن مخطوطة في زاوية الساعدية بمصراته نقلت عنها أثناء زيارتي لقبرسيدي محمد بن عبد الله يوم الخميس 29 ـ 5 ـ 1997 ف .

(2) رحومة الصاري ص 3 مصدر سابق .

(3) نفسه ص 61 .

(4) نفسه ص 151 .

الغزو الإيطالي لليبيا حتى حكم عليه الطليان بالسجن المؤبد[1] ، وقال قاضي المحكمة الإيطالية[2] « إن خطبك وتحريضك أشد خطراً ممن يقابل الحكومة بالقتال مباشرة» .

بقى في السجن ثماني سنوات ، وأحد عشر شهراً وسبعة أيام قبل العفو عنه بتاريخ 30 ـ 5 ـ 1932 م مع مجموعة من المساجين[3] .

إن من يحملون رسالة العلم يعيشون لها في جميع أوقاتهم وتحت ظل الظروف المواتية ، وغير المواتية ، وكذلك كان الشيخ رحومة ، فهو عالم ، ورسالة العلم شغلت وقته حتى في سجنه ، وأقام فيه حلقات الدرس ، وخرج فيه العلماء أمثال الشيخ عبد الرحمن بن حكومه وغيره ، وألف فيه الكتب العلمية التي تم تحقيقها ضمن رسالة : رحومة الصاري حياته وآثاره عرف عنه أنه كان يحرق مابقى من فتات الخبز ليجعله مداداً يكتب به على ورق مقوى يستخدمه التجار .

وكان العالم الأزهري ، التقي الورع ، الشيخ مفتاح بن زاهية من أعلام هذه الطريقة الساعدية أيضاً ، بنى زاوية في بلده زليتن بعد رجوعه من الأزهر ، عرفت باسمه ، أوقف عليها كل أملاكه ، تبعد عن زاوية الباز بمئات الأمتار إلى الشرق الجغرافي ، ولا أثر لها الآن بعد أن كانت عيناً ، جلس فيها الشيخ مفتاح نفسه للتدريس ، فعمرت به ، وبعده بالدرس ، وبالطلاب الدارسين للعلم ، والقارئين للقرآن ، وكانت ملتقى الصوفية فداهمها مخطط المدينة ، وصار مكانها بيوتاً أو طرقاً .

إن أمثال هؤلاء الأعلام ـ من ذكرنا ومن لم نذكر ـ ممن كانوا على هذا المنهج قد أحيوا سنة للناس تتبع ، فهم جديرون بأن ينهل من المنهل الذي نهلوا منه تأسياً بهم وقدوة ، فهم العارفون بشرع الله بما بينوه وشرحوه قولاً وعملاً ، وهم جنود في معارك النضال ، عباد بالليل ، فرسان بالنهار ، فهل للناس اليوم أن ينهجوا هذا المنهج الصحيح؟ .

(1) رحومة الصاري . مصدر سابق . انظر منطوق الحكم في ملاحقه : دعوى قضائية 228 بالقيد رقم 312 .

(2) رحومة الصاري . ص 62 . مصدر سابق .

(3) نفسه ص 63 .

مصادر البحث ومراجعه

ـ القرآن الكريم مصحف الجماهيرية برواية قالون عن نافع . ط : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ طرابلس ـ الجماهيرية العظمى .

1 ـ أعلام ليبيا ، الطاهر أحمد الزاوي ، مؤسسة الفرجاني ـ طرابلس ـ ليبيا ، ط 2 1390 هـ 1971 م .

2 ـ أعمال ملتقى التصوف الإسلامي العالمي ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ط : أولى 1426 ميلادية .

3 ـ دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية ، الدكتور عبد القادر محمود ، ط : دار الفكر العربي 1978 ف .

4 ـ ديوان شعر مخطوط ، الدكتور محمد مصطفى صوفية .

5 ـ رحومة الصاري ـ حياته وآثاره ، جمع وتحقيق ودراسة ، رسالة ما جستير مخطوطة ، إعداد محمد علي سليم البحباح ، إشراف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صوفية .

6 ـ شاعر من ليبيا ـ أحمد الشارف ـ دراسة وديوان ـ علي مصطفى المصراتي ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ط 3 ، 2000 ف .

7 ـ الفلسفة الصوفية في الإسلام ، مصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحياة ، الدكتور عبد القادر محمود ، ط : دار الفكر العربي (د . ت) .

8 ـ القاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، ط : 2 ، 1371 هـ 1952 م ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر .

9 ـ مخطوطة بزاوية الساعدية ـ بمصراته ـ قرية السراكسة .

10 ـ المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية ، الدكتور : حسن الفاتح قريب الله ، مكتبة الدراسات العربية (د . ت) .

11 ـ المقابلة الشخصية والرواية الشفهية ، الباحث .

12 ـ نقد العلم والعلماء ، أو : تلبيس إبليس ، الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي المتوفي 597 هـ إدارة المطبوعات المنيرية (د . ت) .

13 ـ الأنوار القدسية في تنزيه طرق القوم العلية ، جمع الأستاذ محمد محمد حسن ظافر المدني ، ط : دار الأندلس للتأليف والترجمة والنشر (د . ت) .